المدخل المنظومي لنمذجة الظاهرة الإجتماعية
في الفكر الخلدوني

د. حازم أحمد حسني أحمد

كلية الإقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة

A teacher affects eternity; he can never tell where his influence stops.

Henry ADAMS (1838 – 1918)
The Education of Henry Adams
(1907) ch. 20

إذَا كَانَ التَّعْرِيفُ بِابْنِ خَلْدُونَ كَمُؤَسِّسٍ لِلعُلُومِ الإجتِمَاعِيَّةِ بِمَفْهُومِهَا الوَضْعِيِّ نَافِلَةٌ لاَ تُضِيفُ شَيْئاً لِتَارِيخِ وَتَطَوُّرِ الفِكْرِ الإجتِمَاعِيِّ ، فَإِنَّ المَدْخَلَ المَنْظُومِيَّ الَّذِي اعتَمَدَهُ ابْنُ خَلْدُونَ لِنَمْذَجَةِ الظَّاهِرَةِ الإجتِمَاعِيَّةِ يَكَادُ - عَلَى الجَانِبِ الآخَرِ - أَنْ يَكُونَ مَجْهُولاً . لاَ لِشَيْءٍ - فِيمَا نَعْتَقِدُ - إلاَّ لأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ المُصْطَلَحَ تَصْرِيحاً فِي مُقَدِّمَتِهِ ، فَضْلاً عَنْ غُمُوضِ التَّعْبِيرِ اللُّغَوِيِّ لابْنِ خَلْدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ المُقَدِّمَةِ : وَيَسْتَهْدِفُ المَبْحَثُ رَصْدَ البُعْدِ المَنْظُومِيِّ فِي الفِكْرِ الخَلْدُونِيِّ ، وَاستِكْشَافَ الطَّرْفِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي دَفَعَ بِابْنِ خَلْدُونَ إِلَى اعْتِمَادِ هَذَا الفِكْرِ ، وَلِلنَّظَرِ إِلَى التَّارِيخِ كَمَنْظُومَةٍ دِينَامِيكِيَّةٍ فَائِقَةِ التَّعْقِيدِ . وَيَرْتَبِطُ بِهَذَا الفِكْرِ المَنْظُومِيِّ عِنْدَ ابْنِ خَلْدُونَ فِكْرُهُ الَّذِي اقْتَرَحَهُ لِنَمْذَجَةِ الظَّاهِرَةِ الإجتِمَاعِيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يُوَظِّفْ هَذَا الفِكْرَ بِشَكْلٍ كَامِلٍ سَوَاءٌ فِي *"المُقَدِّمَةِ"* أَوْ فِي بَاقِي أَجْزَاءِ *"كِتَابِ العِبَرِ"* : إِذْ عِنْدَمَا قَامَ ابْنُ خَلْدُونَ بِتَعْرِيفِ "العَقْلِ التَّمْيِيزِيِّ" وَ "العَقْلِ التَّجْرِيبِيِّ" وَ "العَقْلِ النَّظَرِيِّ" فَإِنَّمَا أَقَامَ مَنْهَجاً لِلنَّمْذَجَةِ يَقُومُ عَلَى مَا نَعْرِفُهُ اليَوْمَ فِي لُغَةِ نَمْذَجَةِ الحَاسِبِ لِلظَّاهِرَةِ الإجْتِمَاعِيَّةِ بِتَحْلِيلِ وَتَصْمِيمِ النُّظُمِ ، وَالتَّجْرِيدِ ، وَوَحْدَةِ قَانُونِ التَّغْيِيرِ .

وَرُبَّمَا كَانَتِ التَّجْرِبَةُ الذَّاتِيَّةُ الَّتِي عَاشَهَا ابْنُ خَلْدُونَ هِيَ المَسْؤُولَةُ عَنْ دَفْعِهِ دَفْعاً فِي اتِّجَاهِ الفِكْرِ المَنْظُومِيِّ لِفَهْمِ الظَّاهِرَةِ الإجتِمَاعِيَّةِ فَائِقَةِ التَّعْقِيدِ . فَقَدِ التَقَتْ فِي شَبَابِ هَذَا الرَّجُلِ مَجْمُوعَةُ أَحْدَاثٍ

تَرَكَتْ آثَارَهَا عَمِيقَةً فِي نَفْسِهِ . وَلَمْ يَنْمَحِ مِنْهَا أَثَرٌ وَاحِدٌ طَوَالَ حَيَاتِهِ . بَلْ وَمَا نَعْتَقِدُ أَنَّ أَحَداً يُمْكِنُهُ فَهْمُ ابْنِ خَلْدُونَ وَنَظَرِيَّتَهُ الَّتِي تَنَاوَلَهَا فِي مُقَدِّمَتِهِ إِنْ كَانَ غَافِلاً عَنْ هَذِهِ الأَحْدَاثِ الَّتِي نَرَاهَا حَاضِرَةً فِي كُلِّ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ كِتَابِهِ : فَهَذِهِ الأَحْدَاثُ المَأْسَاوِيَّةُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تُدَمِّرَهُ تَمَاماً لَوْ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ مَصَائِبَ مُتَفَرِّقَةٍ إِخْتَارَتْ أَنْ تَجْتَمِعَ فِي زَمَنِهِ لِتَحْكُمَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَحْيَا مَيِّتاً أَوْ بِأَنْ يَمُوتَ حَيّاً . أَوْ "كَائِنًا نَادَى لِسَانُ الكَوْنِ فِي العَالَمِ بِالهُمُولِ لَبَادَرَ بِالإِجَابَةِ" كَمَا قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ نَفْسُهُ فِي "المُقَدِّمَةِ"[1] .

كَانَ ابْنُ خَلْدُونَ إِذَنْ يَرَى العَالَمَ وَقَدْ أَوْشَكَ أَنْ يَنْهَارَ : فَالأَنْدَلُسُ الَّذِي عَاشَ فِيهِ أَجْدَادُهُ - وَقَدْ كَانُوا فِيهِ بَيْتَ عِلْمٍ وَرِيَاسَةٍ - كَانَ يَنْهَارُ عَلَى أَبْشَعِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ صُوَرُ الإِنْهِيَارِ : وَكَانَ المَغْرِبُ العَرَبِيُّ كُلُّهُ يَتَجَرَّعُ مَرَارَةَ الحُرُوبِ الأَهْلِيَّةِ الَّتِي صَاحَبَتْ ضَعْفَ الحُكْمِ العَرَبِيِّ . وَرَغْبَةَ قَبَائِلِ البَرْبَرِ فِي اسْتِعَادَةِ مَقَالِيدِ الحُكْمِ فِي بِلَادِهِمْ . وَلَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسُهُ بَعِيداً عَنْ مَسْرَحِ الأَحْدَاثِ فِي تِلْكَ الحُرُوبِ وَالصِّرَاعَاتِ . بَلْ شَارَكَ فِيهَا . وَاكْتَوَى بِهَا . وَدَفَعَ ثَمَنَهَا غَالِياً مِنْ سَنَوَاتِ عُمْرِهِ الَّتِي قَضَاهَا سَجِيناً أَوْ طَرِيداً : وَكَانَ المَشْرِقُ العَرَبِيُّ بِدَوْرِهِ يَئِنُّ تَحْتَ حُكْمِ التَّتَارِ . إِذْ كَانَ ابْنُ خَلْدُونَ مُعَاصِراً لِتَيْمُورلَنْك . بَلْ وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا لِقَاءَاتٌ مُبَاشِرَةٌ وَجْهاً لِوَجْهٍ بَعْدَ ذَلِكَ : لَكِنَّ أَخْطَرَ مَا مَرَّ بِهِ القَرْنُ الرَّابِعَ عَشَرَ لِمِيلَادِ المَسِيحِ إِنَّمَا كَانَ "الطَّاعُونُ الأَسْوَدُ" الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ خَلْدُونَ بِـ"الطَّاعُونِ الجَارِفِ" . فَقَدْ بَدَأَ هَذَا الوَبَاءُ فِي بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ سَنَةَ ١٣٤٦ م.م. (٧٤٦ هـ.) . ثُمَّ مَا لَبِثَ الوَبَاءُ أَنْ ضَرَبَ القُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي العَامِ التَّالِي مُبَاشَرَةً . وَمِنَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى كُلِّ حَوْضِ البَحْرِ المُتَوَسِّطِ . بَلْ وَإِلَى كُلِّ أُورُوبَّا الَّتِي ضَرَبَهَا بِقَسْوَةٍ لَمْ تَسْلَمْ مِنْهَا حَتَّى الجُزُرُ البِرِيطَانِيَّةُ الَّتِي خَسِرَتْ وَحْدَهَا ٤٠٪ مِنْ سُكَّانِهَا ! وَلَمْ تَكُنِ انْجِلْتِرَا مِنَ البِلَادِ الَّتِي يَدْعُو حَالُهَا إِلَى الرِّثَاءِ . فَبُوكَاتشِيُو[2] يَكْتُبُ لَنَا فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ الأَشْهَرِ "دِيكَامِيرُون"[3] كَيْفَ أَنَّ أَمْلاَكَ عَائِلاَتٍ بِأَكْمَلِهَا صَارَتْ بِلاَ مَالِكٍ لأَنَّ أَصْحَابَهَا مَاتُوا مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ يُمْكِنُ الظَّنُّ بِأَنَّهُ وَرِيثٌ لَهَا ! بَلْ وَيَرْوِي لَنَا كَيْفَ أَنَّ الشَّابَّ مَوْفُورَ الصِّحَّةِ كَانَ يَتَنَاوَلُ فَطُورَهُ بَيْنَ أَهْلِهِ فِي الصَّبَاحِ . ثُمَّ يَذْهَبُ مَسَاءً لِيَتَنَاوَلَ عَشَاءَهُ مَعَ أَجْدَادِهِ فِي العَالَمِ الآخَرِ ! البَعْضُ يَرَى فِي رِوَايَةِ بُوكَاتشِيُو مُبَالَغَةً أَدَبِيَّةً . غَيْرَ أَنَّ اتِّهَامَ بُوكَاتشِيُو بِالمُبَالَغَةِ لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَفْقِدَ حُجَّتَهُ حِينَ نَعْلَمُ أَنَّ مَدِينَةَ فلورنسا - الَّتِي كَانَ يَكْتُبُ عَنْهَا بُوكَاتشِيُو - قَدِ انْخَفَضَ تِعْدَادُهَا مِنْ ١١٠ أَلْفِ نَسَمَةٍ فِي بِدَايَةِ الطَّاعُونِ إِلَى نَحْوِ خَمْسِينَ أَلْفِ نَسَمَةٍ فِي نِهَايَتِهِ . أَيْ أَنَّهَا فَقَدَتْ نَحْوَ ٦٠٪ مِنْ عَدَدِ السُّكَّانِ ! بَلْ إِنَّ مَنَاطِقَ أُخْرَى فِي أُورُوبَّا لَمْ يَتَبَقَّ لَهَا مِنْ قَاطِنِيهَا إِلاَّ نِسْبَةُ الخُمْسِ . فِي حِينِ بَادَتْ مَنَاطِقُ أُخْرَى بِأَكْمَلِهَا ! البَعْضُ يَرَى أَنَّ هَذَا الطَّاعُونَ "الأَسْوَدَ" - الَّذِي ضَرَبَ الأَرْضَ مِنْ

أَوَاسِط آسْيَا شَرْقاً إِلَى المَغْرِبِ وَالبُرتُغَالِ غَرْباً . وَمِنَ الجُزُرِ البِريطَانِيَّةِ شَمَالاً إِلَى الصَّحَرَاءِ الكُبْرَى جَنُوباً - إِنَّمَا أَجْهَزَ فِي أَكْثَرِ التَّقْدِيرَاتِ تَفَاؤُلاً عَلَى مَا يَقْرُبُ مِنْ ثُلُثِ سُكَّانِ المَعْمُورَةِ ! ؟ أَمَّا عَنْ أَثَرِ الطَّاعُونِ جَنُوبَ المُتَوَسِّطِ فَقَدِ اجْتَاحَهُ الوَبَاءُ سَنَةَ ١٣٤٩ م.م. (٧٥٠ هـ.) - وَكَانَ عُمْرُ ابْنِ خَلْدُونَ وَقْتَهَا سَبْعَةَ عَشَرَ عَاماً - وَعَنْ هَذَا الطَّاعُونِ كَتَبَ ابْنُ خَاتِمَةَ الأَنْدَلُسِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ عُنْوَانُهَا *تَحْصِيلُ غَرَضِ القَاصِدِ فِي تَفْصِيلِ المَرَضِ الوَافِدِ* يَقُولُ أَنْ قَدْ بَلَغَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الثِّقَاتِ إِنَّهُ كَانَ يَهْلِكُ بِهَذَا الطَّاعُونِ بِمَدِينَةِ تُونُسَ - حَيْثُ وُلِدَ ابْنُ خَلْدُونَ . وَحَيْثُ كَانَ يَتَلَقَّى العِلْمَ - أَلْفٌ وَمِائَتَانِ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ ! ؟ وَلَيْسَ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ خَاتِمَةَ - فِيمَا يَتَصَوَّرُ البَاحِثُ - أَدْنَى مُبَالَغَةٍ . فَكَلِمَاتُ ابْنِ خَلْدُونَ البَلِيغَةُ تُغْنِينَا عَنِ البَحْثِ وَلاَ تُبْقِي لِلإِحْصَاءِ مَكَاناً . إِذْ كَتَبَ عَنِ الطَّاعُونِ الجَارِفِ فِي كِتَابِ التَّعْرِيفِ بِنَفْسِهِ يَقُولُ إِنَّ هَذَا الوَبَاءَ إِنَّمَا "طَوَى البِسَاطَ بِمَا حَمَلَ !"

لَمْ يَنْفَصِلْ فِكْرُ ابْنِ خَلْدُونَ فِي المُقَدِّمَةِ إِذَنْ عَنِ الظَّرْفِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ . وَهُوَ أَمْرٌ لاَ يُنْكِرُهُ ابْنُ خَلْدُونَ وَلاَ يُخْفِيهِ . فَهَا هُوَ يُبْرِزُ هَذَا الدَّوْرَ فِي صِيَاغَتِهِ لِفِكْرِهِ إِذْ يَقُولُ :

"وَأَمَّا لِهَذَا العَهْدِ - وَهُوَ آخِرُ المِائَةِ الثَّامِنَةِ [لِلهِجْرَةِ] - فَقَدِ انْقَلَبَتْ أَحْوَالُ المَغْرِبِ الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالجُمْلَةِ . وَاغْتَاضَ مِنْ أَجْيَالِ البَرْبَرِ أَهْلِهِ عَلَى القِدَمِ بِمَنْ طَرَأَ فِيهِ مِنْ لَدُنِ المِائَةِ الخَامِسَةِ مِنْ أَجْيَالِ العَرَبِ ، بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَانْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الأَوْطَانِ . وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ البُلْدَانِ لِمُلْكِهِمْ ، هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالعُمْرَانِ شَرْقاً وَغَرْباً فِي مُنْتَصَفِ هَذِهِ المِائَةِ الثَّامِنَةِ [لِلهِجْرَةِ] مِنَ الطَّاعُونِ الجَارِفِ ، الَّذِي تَعَيَّفَ الأُمَمَ وَذَهَبَ بِأَهْلِ الجِيلِ ، وَطَوَى كَثِيراً مِنْ مَحَاسِنِ العُمْرَانِ وَمَحَاهَا ، وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ هَرَمِهَا وَبُلُوغِ الغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا ، فَقَلَّصَ مِنْ ظِلاَلِهَا ، وَقَلَّ مِنْ صَدَّهَا ، وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا ، وَتَدَاعَتْ إِلَى التَّلاَشِي وَالاضْمِحْلاَلِ أَحْوَالُهَا ، وَانْتُقِصَ عُمْرَانُ الأَرْضِ بِانْتِقَاصِ البَشَرِ ، لَخَرِبَتِ الأَمْصَارُ وَالمَصَانِعُ ، وَدَرَسَتِ السُّبُلُ وَالمَعَالِمُ ، وَخَلَتِ الدِّيَارُ وَالمَنَازِلُ ، وَضَعُفَتِ الدُّوَلُ وَالقَبَائِلُ ، وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ . وَكَأَنِّي بِالمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالمَغْرِبِ ، لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ عُمْرَانِهِ ، وَكَأَنَّمَا نَادَى لِسَانُ الكَوْنِ فِي العَالَمِ بِالخُمُولِ وَالانْقِبَاضِ فَبَادَرَ بِالإِجَابَةِ ، وَاللهُ وَارِثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا تَبَدَّلَتِ الأَحْوَالُ جُمْلَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ ، وَتَحَوَّلَ العَالَمُ بِأَسْرِهِ ، وَكَأَنَّهُ خَلْقٌ جَدِيدٌ ، وَنَشْأَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ ، وَعَالَمٌ مُحْدَثٌ ، لِاخْتِلاَفِ

لِهٰذَا الفَهْمِ مَنْ يُدَوِّنُ أَحْوَالَ العَلِيقَةِ وَالآفَانِ وَأَجْيَالِهَا وَالعَوَائِدَ وَالنِّحَلَ الَّتِي تَبَدَّلَتْ لأَهْلِهَا" [1]

هٰذِهِ الأَحْدَاثُ المَأْسَاوِيَّةُ المُتَزَامِنَةُ الَّتِي عَانَى مِنْهَا ابْنُ خَلْدُونَ . سَوَاءٌ فِي ذٰلِكَ سُقُوطُ دَوْلَةِ العَرَبِ بِالأَنْدَلُسِ وَمَا اقْتَضَاهُ مِنْ هِجْرَةِ أُسْرَتِهِ إِلَى تُونُسَ ، أَوِ الحُرُوبُ الأَهْلِيَّةُ بِالمَغْرِبِ العَرَبِيِّ وَمَا أَدَّتْ إِلَيْهِ مِنْ مُعَانَاةٍ شَخْصِيَّةٍ لَهُ فِي السُّجُونِ ، أَوْ زَحْفُ التَّتَارِ عَلَى الشَّرْقِ وَمَا عَانَاهُ ابْنُ خَلْدُونَ بِسَبَبِ ذٰلِكَ مِنْ مَوَاقِفَ لاَ يُحْسَدُ عَلَيْهَا ، أَوِ الطَّاعُونُ الأَسْوَدُ الَّذِي حَصَدَ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ . كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَدْفَعَ بِابْنِ خَلْدُونَ إِلَى تَشَاؤُمِيَّةٍ مُدَمِّرَةٍ ، أَوْ إِلَى حَالَةٍ مِنْ رَفْضِ القِيَمِ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهَا كَمَا فَعَلَ بُوكَاتشْيُو الَّذِي رَأَى فِي مَأْسَاةِ الطَّاعُونِ الأَسْوَدِ الَّتِي اجْتَاحَتِ العَالَمَ "قَسْوَةً مِنَ السَّمَاءِ نَحْوَ البَشَرِ . وَقَسْوَةً مِنَ البَشَرِ تِجَاهَ بَعْضِهِم البَعْض" [2] : لٰكِنَّ ابْنَ خَلْدُونَ - عَلَى العَكْسِ مِنْ بُوكَاتشْيُو - لَمْ يَفْقِدْ إِيمَانَهُ بِالقِيَمِ ، وَلاَ هُوَ فَقَدَ إِيمَانَهُ بِرَبِّهِ أَوْ بِالمُجْتَمَعِ ، وَإِنَّمَا رَأَى فِي تَزَامُنِ هٰذِهِ الكَوَارِثِ إِشَارَةً إِلَى وُجُودِ شَيْءٍ يَجْمَعُ بَيْنَهَا غَيْرَ "قَسْوَةِ السَّمَاءِ ، وَقَسْوَةِ البَشَرِ" . فَنَرَاهُ يُبَيِّنُ فِي "المُقَدِّمَةِ" - أَنَّ هَرَمَ الدَّوْلَةِ يُؤَدِّي عَبْرَ مَجْمُوعَةِ عَلاَقَاتٍ إِلَى تَفَشِّي الأَنِينَةِ ، وَأَنَّ تَفَشِّي الأَنِينَةِ بِدَوْرِهِ إِنَّمَا يُسْهِمُ فِي إِضْعَافِ الدَّوْلَةِ وَالتَّعْجِيلِ بِسُقُوطِهَا : وَعَلَى هٰذَا المِنْوَالِ كَانَ تَفْكِيرُ ابْنِ خَلْدُونَ فِي كُلِّ فُصُولِ "المُقَدِّمَةِ" إِذْ يَقُولُ :

"إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تُقَرَّرَ لَكَ فِيمَا سَلَفَ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا لاَ بُدَّ لَهَا مِنَ الرِّفْقِ فِي مَلَكَتِهَا ، وَالاِعْتِدَالِ فِي إِيَالَتِهَا ، إِمَّا مِنَ الدِّينِ إِنْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ دِينِيَّةً ، أَوْ مِنَ المُغَالَبَةِ وَالمُمَاسَنَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا البَدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلدَّوْلِ ، وَإِذَا كَانَتِ المَلَكَةُ رَفِيقَةً مُحْسِنَةً اِنْبَسَطَتْ آمَالُ الرَّعَايَا ، وَانْتَشَطُوا لِلعُمْرَانِ وَأَسْبَابِهِ فَتَوَفَّرَ ، وَيَكْثُرُ التَّنَاسُلُ ، وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ بِالتَّدْرِيجِ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ فِي الأَقَلِّ ، وَفِي القَضَاءِ الجِيلَيْنِ تُشْرِفُ الدَّوْلَةُ عَلَى نِهَايَةِ عُمْرِهَا الطَّبِيعِيِّ ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ العُمْرَانُ فِي غَايَةِ الوُفُورِ وَالنَّمَاءِ ، وَلاَ تَقُولَنَّ إِنَّهُ قَدْ مَرَّ لَكَ أَنَّ أَوَاخِرَ الدَّوْلَةِ يَكْثُرُ فِيهَا الإِجْحَافُ بِالرَّعَايَا وَسُوءُ المَلَكَةِ ، فَذٰلِكَ صَحِيحٌ وَلاَ يُعَارِضُ مَا قُلْنَاهُ ، لأَنَّ الإِجْحَافَ - وَإِنْ حَدَثَ حِينَئِذٍ وَقَلَّتِ الجِبَايَاتُ - فَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي تَنَاقُصِ العُمْرَانِ بَعْدَ جِيلٍ مِنْ أَجْلِ التَّدْرِيجِ فِي الأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ .

"ثُمَّ إِنَّ المَجَاعَاتِ وَالمَوَتَانَ تَكْثُرُ عِنْدَ ذٰلِكَ فِي أَوَاخِرِ الدُّوَلِ ، وَالسَّبَبُ فِيهِ : أَمَّا المَجَاعَاتُ ، فَلِقَبْضِ النَّاسِ أَيْدِيَهُم عَنِ الفَلْعِ فِي الأَكْثَرِ بِسَبَبِ مَا يَقَعُ فِي آخِرِ الدَّوْلَةِ مِنَ العُدْوَانِ فِي الأَمْوَالِ وَالجِبَايَاتِ ، أَوِ الفِتَنِ الوَاقِعَةِ فِي انْتِقَاصِ

الرَّعَايَا وَكَثْرَةَ الْعَوَارِضِ لِهَرَمِ الدَّوْلَةِ ، فَيَقِلُّ اعْتِمَارُ الزَّرْعِ غَالِبًا ، وَلَيْسَ صَلَاحُ الزَّرْعِ وَثَمَرَتُهُ بِمُسْتَمِرِّ الْوُجُودِ وَلَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، لِطَبِيعَةِ الْعَالَمِ فِي كَثْرَةِ الْأَنْظَارِ وَقِلَّتِهَا مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْمَطَرُ يَقْوَى وَيَضْعُفُ ، وَيَقِلُّ وَيَكْثُرُ ، وَالزَّرْعُ وَالثِّمَارُ وَالضَّرْعُ عَلَى نِسْبَتِهِ ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ وَاثِقُونَ فِي أَقْوَاتِهِمْ بِالِاعْتِمَارِ ، فَإِذَا فُقِدَ الِاعْتِمَارُ عَظُمَ تَوَقُّعُ النَّاسِ لِلْمَجَاعَاتِ ، فَقَلَّ الزَّرْعُ وَعَجَزَ عَنْهُ أُولُو الْحَصَاصَةِ فَهَلَكُوا ، وَكَانَ بَعْضُ السَّنَوَاتِ وَالِاعْتِمَارُ مَفْقُودٌ لَشَمَلَ النَّاسَ الْجُوعُ .

"وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمَوْتَانِ فَلَهَا أَسْبَابٌ مِنْ كَثْرَةِ الْمَجَاعَاتِ - كَمَا ذَكَرْنَاهُ - أَوْ كَثْرَةِ الْفِتَنِ لِاخْتِلَالِ الدَّوْلَةِ ، فَيَكْثُرُ الْهَرْجُ وَالْقَتْلُ ، أَوْ وُقُوعُ الْوَبَاءِ ، وَسَبَبُهُ فِي الْغَالِبِ فَسَادُ الْهَوَاءِ بِكَثْرَةِ الْعُمْرَانِ لِكَثْرَةِ مَا يُخَالِطُهُ مِنَ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ ، وَإِذَا فَسَدَ الْهَوَاءُ - وَهُوَ غِذَاءُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَمُلَابِسُهُ دَائِمًا ، لِيَسْرِي الْفَسَادُ إِلَى مِزَاجِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ قَوِيًّا وَقَعَ الْمَرَضُ فِي الرِّئَةِ ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّوَاعِينُ وَأَمْرَاضُهَا مَخْصُوصَةٌ بِالرِّئَةِ ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ دُونَ الْقَوِيِّ وَالْكَثِيرِ لِيَكْثُرُ الْعَفَنُ وَيَتَضَاعَفُ ، فَتَكْثُرُ الْحُمَّيَاتُ فِي الْأَمْزِجَةِ ، وَتَمْرَضُ الْأَبْدَانُ وَتَهْلِكُ ؛ وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَفَنِ وَالرُّطُوبَاتِ الْفَاسِدَةِ فِي هَذَا كُلِّهِ كَثْرَةُ الْعُمْرَانِ ، وَوُفُورُهُ آخِرَ الدَّوْلَةِ لِمَا كَانَ فِي أَوَائِلِهَا مِنْ حُسْنِ الْمَلَكَةِ وَرِفْقِهَا وَقِلَّةِ الْمَغْرَمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ ؛ وَلِهَذَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ تَمَلُّلَ الْحَلَاءِ وَالْقَفْرِ بَيْنَ الْعُمْرَانِ ضَرُورِيٌّ ، لِيَكُونَ تَمَوُّجُ الْهَوَاءِ يَذْهَبُ بِمَا يَحْصُلُ فِي الْهَوَاءِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَفَنِ بِمُخَالَطَةِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَيَأْتِي بِالْهَوَاءِ الصَّحِيحِ ؛ وَلِهَذَا أَيْضًا فَإِنَّ الْمَوْتَانَ يَكُونُ فِي الْمُدُنِ الْمَوْفُورَةِ الْعُمْرَانِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا بِكَثِيرٍ ، كَمِصْرَ بِالْمَشْرِقِ وَفَاسَ بِالْمَغْرِبِ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ"[٦]

كَانَ ابْنُ خَلْدُونَ إِذَنْ عَبْقَرِيًّا لَا شَكَّ فِي عَبْقَرِيَّتِهِ . فَهَا نَحْنُ أَمَامَ رَجُلٍ يُحَدِّثُنَا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ قُرُونٍ مَضَتْ عَنِ الِاقْتِصَادِ السِّيَاسِيِّ ، وَعَنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ ، وَعَنْ عِلْمِ السُّكَّانِ ، وَعَنْ عُلُومِ الْبِيئَةِ ، وَعَنِ التَّخْطِيطِ الْعُمْرَانِيِّ ، بَلْ وَعَنِ الطِّبِّ الْوِقَائِيِّ ، وَحَتَّى عَنِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّبَاطُؤِ فِي نَمَاذِجِ التَّحْلِيلِ السُّلُوكِيِّ : كُلُّ ذَلِكَ فِي آنٍ وَاحِدٍ . وَفِيمَا لَا يَزِيدُ إِلَّا قَلِيلًا عَنْ صَفْحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ مَبْحَثِنَا !

رُؤْيَةُ ابْنِ خَلْدُونَ هَذِهِ - إِنْ نَحْنُ اسْتَعَرْنَا لُغَةَ عَصْرِ الْحَاسِبَاتِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ فِكْرِ الرَّجُلِ - كَانَتْ - كَمَا تُوَضِّحُ كَلِمَاتُهُ - رُؤْيَةً مَنْظُومِيَّةً . إِذْ نَظَرَ ابْنُ خَلْدُونَ لِلْمَنْظُومَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ كَمَنْظُومَةٍ

مُعَقَّدَة Complex System لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ دِرَاسَتُهَا إِنْ لَمْ تُؤْخَذْ فِي الإعتِبَارِ كُلُّ العَوَامِلِ الَّتِي تَتَفَاعَلُ آنِيًّا لِتَصْنَعَ سُلُوكًا مَنْظُومِيًّا جَعَلَهُ ابْنُ خَلْدُونَ مَوْضُوعًا لِعِلْمٍ قَالَ عَنْهُ إِنَّهُ عِلْمٌ "مُسْتَنْبَطُ النَّشْأَةِ" [٧] . مَوْضُوعُهُ "العُمْرَانُ البَشَرِيُّ وَالإجتِمَاعُ الإنسَانِيُّ" [٧] . وَلَهُ مَسَائِلُ يُبْحَثُ فِيهَا هِيَ "بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ العَوَارِضِ وَالأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى" [٧] . ثُمَّ اسْتِنَادًا إِلَى هَذَا الفِكْرِ المَنْظُومِيِّ صَنَّفَ ابْنُ خَلْدُونَ مُؤَلَّفَهُ . فَلاَ يُمْكِنُ فَهْمُ مَنْظُومَةِ *العُمْرَانِ البَشَرِيِّ وَالإجتِمَاعِ الإنسَانِيِّ* هَذِهِ - وَفْقَ الرُّؤْيَةِ الخَلْدُونِيَّةِ - إِلاَّ بِفَهْمِ مَا يُكَوِّنُهَا مِنْ عُقَدٍ *Nodes* يُطْلِقُ عَلَيْهَا ابْنُ خَلْدُونَ مُصْطَلَحَ "المَآخِذِ" [١] . وَإِلاَّ بِفَهْمِ طَبِيعَةِ العَلاَقَاتِ الَّتِي تَقُومُ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِ هَذِهِ المَنْظُومَةِ مِمَّا يُعَرِّفُهُ ابْنُ خَلْدُونَ بِأَنَّهُ "أُمُورٌ تَعْرِضُ مِنْ هَيْئَةِ الإجتِمَاعِ عُرُوضًا ذَاتِيًّا" [٧] : هَذِهِ المَنْظُومَةُ المُعَقَّدَةُ - كَمَا يَرَاهَا ابْنُ خَلْدُونَ - لَيْسَتْ استَاتِيكِيَّةً *Static* وَإِنَّمَا هِيَ مَنْظُومَةٌ دِينَامِيكِيَّةٌ *Dynamic* تَنْتَقِلُ عَبْرَ الزَّمَنِ مِنْ حَالَةٍ *State* تَكُونُ عَلَيْهَا إِلَى حَالَةٍ تَصِيرُ إِلَيْهَا

> "وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوَالَ العَالَمِ وَالأُمَمِ وَعَوَائِدَهُمْ وَنِحَلَهُمْ لاَ تَدُومُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَاجٍ مُسْتَقِرٍّ ؛ إِنَّمَا هُوَ اخْتِلاَفٌ عَلَى الأَيَّامِ وَالأَزْمِنَةِ ، وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ؛ وَكَمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الأَشْخَاصِ وَالأَوْقَاتِ وَالأَمْصَارِ ، فَكَذَلِكَ يَقَعُ فِي الآفَاقِ وَالأَقْطَارِ وَالأَزْمِنَةِ وَالدُّوَلِ ، سُنَّةُ اللهِ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ." [١]

وَهِيَ نَفْسُ الرُّؤْيَةِ الَّتِي اعتَمَدَهَا أَرْنُولد تُوينْبِي بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ قَرَّرَ أَنَّ التَّارِيخَ "بِرُوتِيُّ الهَيْئَةِ" [٨] . وَمَا يَكَادُ الإنْسَانُ يَسْتَوْعِبُ المَلاَمِحَ الَّتِي تَبْدُو بِهَا هَيْئَةُ التَّارِيخِ حَتَّى تُسَارِعَ هَذِهِ الهَيْئَةُ بِتَغْيِيرِ مَلاَمِحِهَا "كَمَا كَانَ يَفْعَلُ *بِرُوتِيُوس*" [٩] . ذَلِكَ الكَائِنُ الأُسْطُورِيُّ - عَجُوزُ البَحْرِ - الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي أُودِيسَّةِ هُومِيرُوس [١٠] . أَمَّا مَصْدَرُ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الدِّينَامِيكِيَّةِ لِلمَنْظُومَةِ الإجتِمَاعِيَّةِ فَيَرَاهُ ابْنُ خَلْدُونَ فِي تَعَاقُبِ الدُّوَلِ إِذْ يَقُولُ :

> "وَمِنَ الغَلَطِ الخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الذُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ فِي الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الأَعْصَارِ وَمُرُورِ الأَيَّامِ ، وَهُوَ دَاءٌ دَوِيٌّ شَدِيدُ الخَفَاءِ ، إِذْ لاَ يَقَعُ إِلاَّ بَعْدَ أَحْقَابٍ مُتَطَاوِلَةٍ ، فَلاَ يَكَادُ يَتَفَطَّنُ لَهُ إِلاَّ الآحَادُ مِنْ أَهْلِ الخَلِيقَةِ ؛ [...] وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ وَالعَوَائِدِ ، أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ ، كَمَا يُقَالُ فِي الأَمْثَالِ العَامِّيَّةِ « *النَّاسُ عَلَى دِينِ المَلِكِ* » ؛ وَأَهْلُ المُلْكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالأَمْرِ فَلاَ بُدَّ وَأَنْ يَفْزَعُوا إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَيَأْخُذُوا الكَثِيرَ مِنْهَا وَلاَ يُغْفِلُوا عَوَائِدَ جِيلِهِمْ مَعَ ذَلِكَ ، فَيَقَعُ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ المُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الجِيلِ

الأوّل ، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم وَمَزَجَتْ من عَوائدهم وَعَوائدها خالفت أيضاً بعض الشيء ، وكانت للأولى أشدّ مُخالفة ، ثمّ لا يزال التدريج في المُخالفة حتّى ينتهي إلى المباينة بالجملة . فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسُلطان ، لا تزال المُخالفة في العوائد والأحوال واقعة ."[10]

وقد نُوافق ابن خلدون فيما ذهب إليه من أنّ أحوال الأمم والأجيال تتبدّل بتبدّل الأعصار ومُرور الأيّام . وما نعتقد أنّ هُناك دليلاً على صدق هذا القول يعلو على حقيقة أنّ قالة "النّاس على دين الملك" نفسها قد أصابها ما أصابها من تغيّر . فما كان ابن خلدون - على ما تمتّع به من رؤية - ليتصوّر أنّ منظومة الجسد السياسيّ يُمكن أن تتبدّل أحوالها إلى حدّ تبدّل القوانين الّتي تحكم هذا التبدّل !

وبعيداً عن تغيّر القوانين الّتي تحكم الظّاهرة الإجتماعيّة أو ثباتها ، فإنّ فكرة وُجود هذه القوانين المنظوميّة كانت في ذاتها فكرة جريئة . بل كانت فكرة ثوريّة لم يسبق إليها ابن خلدون أحد في تاريخ العلم الإجتماعيّ : فقبل ابن خلدون كان البحث في الظّاهرة الإجتماعيّة بحثاً قيميّاً يتناول المُجتمع كيف يجب أن يكون . ولا يُعير دراسة القوانين الّتي جعلت المُجتمع ما هو عليه إهتماماً يُذكر . فكان ابن خلدون رائداً في فكر العلم المنظوميّ بقوانين الجسد السياسيّ بمفهومها "التجريبيّ" . إذ أقام نمذجته للمنظومة الإجتماعيّة على فكرة وُجود قانون للتغيير يسمح بإخضاع الظّاهرة الإجتماعيّة للبحث "التجريبيّ" : وربّما كان أوضح ما كتبه في هذا الشأن ما جاء بالمُقدّمة في أمر "العلوم وأصنافها والتعليم وطُرقه" . إذ يقول في "الفكر الإنسانيّ" أن :

"اعلم أنّ الله - سبحانه وتعالى - ميّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كمالهم ونهايته لفضله على الكائنات [...] ، وذلك أنّ الإدراك - وهو شعور المُدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته - هو خاصّ بالحيوان لقط من بين سائر الكائنات والموجودات . فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها ، بما ركّب الله فيها من الحواسّ الظّاهرة : السّمع والبصر والشّمّ والذّوق واللّمس . ويزيد الإنسان من بينها أنّه يُدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسّه . وذلك بقوى جُعلت له في بطون دماغه ينتزع بها صُوَر المحسوسات ، ويجول بتدقيقه فيها فيجرّد منها صُوَراً أخرى . والفكر هو التصوّر في تلك الصُوَر وراء الحسّ وجولان النّظر فيها بالانتزاع والتركيب"[11]

ثُمَّ ذَهَبَ ابْنُ خَلْدُونَ يُقَسِّمُ الفِكْرَ إِلَى مَرَاتِبَ ثَلاَث[١٢] : فَأَوَّلُ الفِكْرِ مَا يُسَمِّيهِ *"العَقْلَ التَّمْيِيزِيَّ"* ، وَيَرَى أَنَّ هَـذَا الفِكْرَ أَكْثَرُهُ تَصَوُّرَاتٌ . وَالمَقْصُودُ أَنَّ لِهَـذَا العَقْلِ قُدرَةٌ عَلَى إِدرَاكِ مَعَانِي المُفرَدَاتِ قَبْلَ تَركِيبِهَا [١٢] ؛ ثُمَّ يَأْتِي فِي المَرتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَعدَ هَـذَا الفِكرِ مَا يُسَمِّيهِ ابْنُ خَلْدُونَ *"العَقْلَ التَّجْرِيبِيَّ"* ، وَيَرَى أَنَّ أَكْثَرَ هَـذَا الفِكرِ تَصْدِيقَاتٌ تَأْتِي بِالتَّجْرِبَةِ . وَالمَقْصُودُ أَنَّ لَهُ قُدرَةٌ عَلَى التَّركِيبِ وَالإِسْنَادِ ، أَي نِسْبَةِ المَحمُولِ إِلَى المَوْضُوعِ [١٢] ؛ وَأَخِيراً يَأْتِي فِي المَرتَبَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الفِكرِ مَا يُسَمِّيهِ ابْنُ خَلْدُونَ *"العَقْلَ النَّظَرِيَّ"* ، وَيَقُولُ عَنْهُ إِنَّهُ

> "تَصَوُّرَاتٌ وَتَصدِيقَاتٌ تَنْتَظِمُ انْتِظَاماً خَاصّاً عَلَى شُرُوطٍ خَاصَّةٍ ، لِتُفِيدَ مَعْلُوماً آخَرَ مِن جِنسِهَا فِي التَّصَوُّرِ أَوِ التَّصدِيقِ ، ثُمَّ يَنتَظِمُ مَعَ غَيرِهِ لِيُفِيدَ مَعْلُوماً آخَرَ كَذَلِكَ . وَغَايَةُ إِدَارَتِهِ تَصَوُّرُ الوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيهِ بِأَجْنَاسِهِ وَفُصُولِهِ وَأَسْبَابِهِ وَعِلَلِهِ ، فَيَحْصُلُ الفِكْرُ بِذَلِكَ وَيَصِيرُ عَقْلاً مَحْضاً وَنَفْساً مُدْرِكَةً ، وَهُوَ مَعْنَى الحَقِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ" [١١] .

وَمَا نَعتَقِدُ ابْنَ خَلْدُونَ فِي هَـذِهِ الفِقْرَةِ الأَخِيرَةِ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا عَمَّا *"يُفِيدُ مَعْلُوماً آخَرَ مِن جِنسِهِ فِي التَّصَوُّرِ أَوِ التَّصدِيقِ ، ثُمَّ يَنتَظِمُ مَعَ غَيرِهِ لِيُفِيدَ مَعْلُوماً آخَرَ"* إِلاَّ مُحَدِّثَنَا عَمَّا نُسَمِّيهِ اليَوْمَ بِالنَّمْذَجَةِ ؛ وَمَا نَعتَقِدُهُ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا عَنِ *"التَّصَوُّرَاتِ وَالتَّصدِيقَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُ انْتِظَاماً خَاصّاً عَلَى شُرُوطٍ خَاصَّةٍ"* [١١] إِلاَّ مُحَدِّثَنَا عَنْ قَانُونِ التَّعبِيرِ الَّذِي لا يَقُومُ البَحْثُ فِي الحَقِيقَةِ الإِنْسَانِيَّةِ إِلاَّ بِهِ ؛ لَكِنَّهُ يُقَدِّمُ لِهَـذَا فِي الفِقْرَةِ الأُولَى بِأَمْرَيْنِ لاَ يُهْمِلُ التَّأْكِيدَ عَلَيْهِمَا : أَوَّلُهُمَا "التَّجْرِيدُ" الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا عَنِ القُوَى الذِّهْنِيَّةِ لِلإِنْسَانِ الَّتِي *"يَنْتَزِعُ بِهَا صُوَرَ المَحْسُوسَاتِ ، وَيَقبَلُ بِذِهْنِهِ فِيهَا ، لِيُجَرِّدَ مِنْهَا صُوَرَاً أُخْرَى"* [١١] ؛ وَثَانِيهِمَا "تَحْلِيلُ وَتَصْمِيمُ النُّظُمِ" الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا عَنِ *"التَّصَوُّرِ [...] وَرَاءَ الحِسِّ"* وَعَنْ *"جَوَلاَنِ الذِّهْنِ [فِي الصُّوَرِ] بِالانْتِزَاعِ وَالتَّرْكِيبِ"* [١١]

هَـذَا المَدْخَلُ المَنْظُومِيُّ هُوَ مَا اعْتَمَدَهُ ابْنُ خَلْدُونَ وَهُوَ يُنَظِّرُ لِلظَّاهِرَةِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ . وَيَبْحَثُ فِي قَوَانِينِ التَّعْبِيرِ الَّتِي تَحْكُمُهَا ، وَيَبْنِي نَمُوذَجاً يَصِفُ وَيُفَسِّرُ حَرَكَةَ التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ عَلَى أُسُسٍ تَجْرِيبِيَّةٍ وَاقِعِيَّةٍ ، لاَ عَلَى أُسُسٍ قِيمِيَّةٍ مِثَالِيَّةٍ : فَابْنُ خَلْدُونَ لاَ يَتَنَاوَلُ التَّارِيخَ فِي ظَاهِرِهِ الَّذِي شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ فِي عَصْرِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَزِيدُ عِنْدَ عَامَّتِهِم - وَلاَ عِنْدَ خَاصَّتِهِم - عَنْ كَوْنِهِ :

> "إِخْبَاراً عَنِ الأَيَّامِ وَالدُّوَلِ ، وَالسَّوَابِقِ مِنَ القُرُونِ الأُوَلِ ، تَنْمُو فِيهَا الأَقْوَالُ ، وَتُضْرَبُ فِيهَا الأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا الأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا الإِحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي إِلَيْنَا

شَأنَ الخَلِيقَةِ كَيفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الأحْوَالُ ، وَاتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالمَجَالُ ، وَعَمَرُوا الأرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمُ الإرتِحَالُ ، وَهَانَ مِنهُمُ الزَّوَالُ !" [14]

وَإنَّمَا هُوَ يَتَنَاوَلُهُ بِاعْتِبَارِهِ "فَنّاً"

"عَزِيزَ المَذْهَبِ ، جَمَّ الفَوَائِدِ ، شَرِيفَ الغَايَةِ ، [وَحَتَّى تَتِمَّ الفَائِدَةُ مِنهُ] فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ ، وَحُسنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفضِيَانِ بِصَاحِبِهَا إلَى الحَقِّ ، وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ المَزَلاَّتِ وَالمَغَالِطِ ، لأنَّ الأخْبَارَ إذَا اعتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ ، وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ العَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ العُمْرَانِ وَالأحْوَالِ فِي الاجْتِمَاعِ الإنسَانِيِّ ، وَلاَ قِيسَ الغَائِبُ مِنهَا بِالشَّاهِدِ ، وَالحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ ، لَرُبَّمَا لَمْ يُؤمَنْ فِيهَا مِنَ العُثُورِ ، وَمَزَلَّةِ القَدَمِ وَالحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ الصِّدْقِ . وَكَثِيرَاً مَا وَقَعَ لِلمُؤَرِّخِينَ وَالمُفَسِّرِينَ وَأئِمَّةِ النَّقْلِ المَغَالِطُ فِي الحِكَايَاتِ وَالوَقَائِعِ ، لاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غُثّاً أوْ سَمِيناً ، لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا ، وَلاَ قَاسُوهَا بِأشْبَاهِهَا ، وَلاَ سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ الحِكْمَةِ ، وَالوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الكَائِنَاتِ ، وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالبَصِيرَةِ فِي الأخْبَارِ ، فَضَلُّوا عَنِ الحَقِّ ، وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الوَهْمِ وَالغَلَطِ ، وَلاَ سِيَّمَا فِي إحْصَاءِ الأعْدَادِ [...] إذَا عَرَضَتْ فِي الحِكَايَاتِ ، إذْ هِيَ مَظِنَّةُ الكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الهَذَرِ ، وَلاَبُدَّ مِن رَدِّهَا إلَى الأصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى القَوَاعِدِ" [1]

فَحَقِيقَةُ التَّارِيخِ عِندَ ابْنِ خَلْدُونَ إذَنْ لاَ تَكْمُنُ فِي كَوْنِهِ قَصَصَاً عَنِ المُلُوكِ وَأيَّامِهِم ، بِقَدْرِ مَا تَكْمُنُ فِي كَوْنِهِ

"خَبَرَاً عَنِ الاجْتِمَاعِ الإنسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمْرَانُ العَالَمِ ، وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ العُمْرَانِ مِنَ الأحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالتَّأنُّسِ وَالعَصَبِيَّاتِ وَأصْنَافِ التَّغَلُّبَاتِ لِلبَشَرِ بَعْضِهِم عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا يَنْشَأ عَنْ ذَلِكَ مِنَ المُلْكِ وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا ، وَمَا يَنْتَحِلُهُ البَشَرُ بِأعْمَالِهِم وَمَسَاعِيهِم مِنَ الكَسْبِ وَالمَعَاشِ وَالعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ ، وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ فِي ذَلِكَ العُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الأحْوَالِ ." [2] .

هَذَا التَّعْرِيفُ الخَلْدُونِيُّ لِلتَّارِيخِ - وَهُوَ تَعْرِيفٌ فَضْفَاضٌ يَكَادُ يَشْمَلُ العُلُومَ الإجْتِمَاعِيَّةَ كُلَّهَا - هُوَ مَا جَعَلَهُ يُصَنِّفُ كِتَابَهُ إسْتِنَادَاً إلَى فِكْرٍ مَنْظُومِيٍّ مُعَقَّدٍ وَإنْ لَمْ يَسْتَخْدِمِ المُصْطَلَحَ بِصَرِيحِ لَفْظِهِ . وَلَمْ

تُسَاعِدُهُ أَدَوَاتُ التَّحْلِيلِ المَاتِيمَاتِيقِيِّ وَالحِسَابِيِّ فِي عَصْرِهِ عَلَى دَفْعِ نَظَرِيَّتِهِ المَنْظُومِيَّةِ إِلَى مَا يُجَاوِزُ حُدُودَ الإِطَارِ العَامِّ . لَكِنَّ هَذَا الإِطَارَ العَامَّ كَانَ فِي ذَاتِهِ خُطْوَةً كُبْرَى خَطَاهَا ابْنُ خَلْدُونَ نَحْوَ تَنْظِيرِ وَتَأْصِيلِ فِكْرِ النَّمْذَجَةِ المَنْظُومِيَّةِ فِي العُلُومِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ .

المراجع والهوامش

[١] عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ ابنُ مُحَمَّدٍ ابنِ خَلْدُونَ : *كِتَابُ العِبَر ، وَدِيوَانُ المُبْتَدَأ وَالخَبَر ، فِي أَيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَر وَمَنْ عَاصَرَهُم مِّنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَر : المُقَدِّمَةُ فِي فَضْلِ عِلْمِ التَّارِيخِ وَتَحقِيقِ مَذَاهِبِهِ ، وَالإِلْمَاعُ لِمَا يَعْرِضُ لِلمُؤَرِّخِينَ مِنَ المَغَالِطِ وَالأَوْهَامِ ، وَذِكْرُ شَيءٍ مِنْ أَسْبَابِهَا .*

[2] Jean Delumeau ; *La Peur en Occident* ; Librairie Arthème Fayard ; Paris ; 1978 ; Chapitre 3

[3] Giovanni BOCCACCIO (1313 – 1375)

[4] Bocace ; Le Decameron ; traduit par J. Bourciez; Paris; 1952

[٥] مُحَمَّد عَبْدُ اللهِ عِنَان : إِبْنُ خَلْدُونَ : حَيَاتُهُ وَتُرَاثُهُ الفِكْرِيُّ : مُؤَسَّسَةُ مُخْتَار (دَارُ عَالَمِ المَعْرِفَةِ) لِنَشْرِ وَتَوْزِيعِ الكِتَابِ ؛ القَاهِرَةُ : ١٩٩١ م.م.

[٦] *عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ ابنُ مُحَمَّدٍ ابنِ خَلْدُونَ : كِتَابُ العِبَر ، وَدِيوَانُ المُبْتَدَأ وَالخَبَر ، فِي أَيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَر وَمَنْ عَاصَرَهُم مِّنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَر : الكِتَابُ الأَوَّلُ فِي طَبِيعَةِ العُمْرَانِ فِي الخَلِيقَةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ البَدْوِ وَالحَضَرِ وَالتَّغَلُّبِ وَالكَسْبِ وَالمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالعُلُومِ وَنَحْوِهَا وَمَا لِذَلِكَ مِنَ العِلَلِ وَالأَسْبَابِ - الفَصْلُ الثَّالِثُ فِي الدُّوَلِ العَامَّةِ وَالمُلْكِ وَالخِلاَفَةِ وَالمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَمَا يَعْرِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الأَحْوَالِ - الفَصْلُ (الفُصَيْلُ) الحَادِي وَالخَمْسُونَ فِي وُقُوعِ العُمْرَانِ آخِرَ الدَّوْلَةِ وَمَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ المَوْتَانِ وَالمَجَاعَاتِ .*

[٧] *عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ ابنُ مُحَمَّدٍ ابنِ خَلْدُونَ : كِتَابُ العِبَر ، وَدِيوَانُ المُبْتَدَأ وَالخَبَر ، فِي أَيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَر وَمَنْ عَاصَرَهُم مِّنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَر : الكِتَابُ الأَوَّلُ فِي طَبِيعَةِ العُمْرَانِ فِي الخَلِيقَةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ البَدْوِ وَالحَضَرِ وَالتَّغَلُّبِ وَالكَسْبِ وَالمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالعُلُومِ وَنَحْوِهَا وَمَا لِذَلِكَ مِنَ العِلَلِ وَالأَسْبَابِ .*

[8] Protéiform

[9] Proteos

[10] HOMÈRE: *L'ODYSSÉE* ; Traduction de Mario Meunier ; Librairie Générale Française ; Collection Prestige de Livre; 1973 ; Chant IV ; pp. 53–58

[١١] عَبْدُ الرَّحْمَـٰن ابْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ خَلْدُونَ (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م.م.) : *كِتَابُ العِبَر ، وَدِيوَانُ المُبْتَدَأ وَالخَبَر ، في أيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَر وَمَن عَاصَرَهُم مِّن ذَوي السُّلْطَان الأكْبَر* : الكِتَابُ الأوَّلُ في طَبِيعَةِ العُمْرَان في الخَلِيقَةِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا مِنَ البَدْوِ وَالحَضَرِ وَالتَّغَلُّبِ وَالكَسْبِ وَالمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ وَالعُلُومِ وَنَحْوِهَا وَمَا لِذَلِكَ مِنَ العِلَلِ وَالأسْبَابِ : الفَصْلُ السَّادِسُ في العُلُومِ وَأصْنَافِهَا وَالتَّعْلِيمِ وَطُرُقِهِ وَمَا يَعْرِضُ في ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الأحْوَالِ : الفَصْلُ (الفُصَيْلُ) الأوَّلُ في الفِكْرِ الإنْسَانِيِّ

[١٢] الأولَى : تَعَقُّلُ الأمُورِ المُرَتَّبَةِ في المَدَارِجِ تَرْتِيباً طَبِيعِيّاً أو وَضْعِيّاً لِيَقْصِدَ إيقَاعَهَا بِقُدْرَتِهِ ، وَهَـٰذَا الغَرَضُ أكْثَرُهُ تَصَوُّرَاتٌ ، وَهُوَ العَقْلُ التَّمْيِيزِيُّ الَّذِي يَحْصُلُ مَنَافِعَهُ وَمَعَاشَهُ وَيَدْفَعُ مَضَارَّهُ .

الثَّانِيَةُ : الغَرَضُ الَّذِي يُفِيدُ الآرَاءَ وَالآدَابَ في مُعَامَلَةِ أبْنَاءِ جِنْسِهِ وَسِيَاسَتِهِم ، وَأكْثَرُهَا تَصْدِيقَاتٌ تَحْصُلُ بِالتَّجْرِبَةِ شَيْئاً فَشَيْئاً إلَى أن تَتِمَّ الفَائِدَةُ مِنْهَا ، وَهَـٰذَا هُوَ المُسَمَّى بِالعَقْلِ التَّجْرِيبِيِّ .

الثَّالِثَةُ : الغَرَضُ الَّذِي يُفِيدُ العِلْمَ أو الظَّنَّ بِمَطْلُوبٍ وَرَاءَ الحِسِّ لاَ يَتَعَلَّقُ بِهِ عَمَلٌ ، لِهَـٰذَا هُوَ العَقْلُ النَّظَرِيُّ .

[١٣] الدَّكْتُور/ عَلِي عَبْدُ الوَاحِدِ وَافِي (مُحَقِّق) : مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُونَ : لَجْنَةُ البَيَانِ العَرَبِيِّ : القَاهِرَةُ : ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .م. : صـ ٩٧٥ تَعْلِيقاً عَلَى هَـٰذَا النَّصِّ مِن نُّصُوصِ المُقَدِّمَةِ : "التَّصَوُّرَاتُ في اصطِلاَحِ عُلَمَاءِ المَنْطِقِ هِيَ إدْرَاكُ مَدْلُولِ المُفْرَدَاتِ وَمَهَايَا الأشْيَاءِ ، وَيُقَابِلُهَا التَّصْدِيقَاتُ وَهِيَ إدْرَاكُ النِّسْبَةِ أي الحُكْمِ أوْ إسْنَادِ المَحْمُولِ إلَى المَوْضُوعِ" .

[١٤] عَبْدُ الرَّحْمَـٰن ابنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ خَلْدُونَ : *كِتَابُ العِبَر ، وَدِيوَانُ المُبْتَدَأ وَالخَبَر ، في أيَّامِ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَالبَرْبَر وَمَن عَاصَرَهُم مِّن ذَوي السُّلْطَان الأكْبَر* : خُطْبَةُ الكِتَاب